الممالك المورية ومظاهر الحضارة الأمازيغية

ظل الاهتمام بالممالك الأمازيغية بالمغرب رهينا بالدراسات التي همت الفترة الاستعمارية، والتي قدمت كما هائلا من الأبحاث ما تزال من أهم المصادر التاريخية المعتمد عليها إلى الآن. الأمر الذي أثار انتباه الباحثين المغاربة في الآونة الأخيرة إلى ضرورة إعطاء اهتمام لهذه الفترة التاريخية من أجل البحث في أسس الهوية التي يتميز بها المغرب وتطبع باقي بلدان شمال إفريقيا. وكان الخطاب الملكي بأجدير في 17 أكتوبر 2001، وقرار إحداث المعهد الملكي للثقافة الأمازيغة حافزا على الاهتمام والبحث في الأصول التاريخية للمملكة المغربية. وأكد الخطاب الملكي على "*أن الأمازيغية، التي تمتد جذورها في أعماق تاريخ الشعب المغربي، هي ملك لكل المغاربة بدون استثناء*".

كان من نتائج هذه الاهتمامات أن أصبح من الضروري توجيه الجهود العلمية للدراسات الأمازيغية، سواء التي تهم اللغة أو الثقافة أو العادات وخصوصا منها التاريخية، التي من شأنها البحث في إشكالية البنية الاجتماعية التي تُميز مُكونات المجتمع المغاربي. وقد عرفت الدراسة التاريخية في الفترة القديمة طفرة كمية ونوعية عمدت إلى إدراج هذه المرحلة من تاريخ المغرب ضمن مقررات المنظومة الوطنية للتربية والتكوين.

وقد تعددت اهتمامات الباحثين بالممالك الأمازيغية انطلاقا من التسمية والأصل وبنية المجتمع وأسس الحكم ثم علاقتها بالقوى الأخرى التي كانت تُسيطر على حوض البحر الأبيض المتوسط من حضارة مصرية ورومانية وغيرها. وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من اختلاف نتائج الأبحاث في مجموعة من المواضيع إلا أنها تتفق في مُجملها على كون الأمازيع شكلوا قوة سياسية بشمال إفريقيا وجنوب الصحراء تركت إرثا ثقافيا وحضاريا لا يزال بارزا في المنطقة، حتى أنه يُعد العماد الأساسي لفهم بنية المجتمع وأسسه التاريخية.

يتوفر الباحث اليوم، لدراسة أصول الأمازيغ بشمال إفريقيا، على نصوص المؤلفين الإغريق واللاتينين القدامى والإسطغرافيا العربية الوسيطية، وعلى نتائج الأبحاث الأركيولوجية والمُخلفات الأثرية. كما يستعين بنتائج الأبحاث الأنتربولوجية والأبحاث اللسنية والأبحاث الإثنولوجية وأخيرا نتائج الأبحاث الأونوماسكية. تعددت الأسماء التي نُعتت بها ساكنة شمال إفريقيا وذلك حسب الظروف التاريخية التي مرت بها المنطقة. فقد عرفت بعدد من التسميات ومنها : الليبيون والنوميديون والأمازيغ والباربار ثم البربر. إن لهذا التعدد في التسميات دلالة مهمة؛ ذلك أنها لم تكن أسماء خاصة بقبيلة واحدة، بل كانت عامة وحدت بين مجموعات بشرية كان لكل واحدة منها اسمها الخاص.

و"إمازيغن" في اللغة البربرية جمع، مفرده "أمازيغ"، وهو الاسم الذي يسمّي به البربر أنفسهم. مؤنث "أمازيغ" هو "تامازيغت"، يطلق على المرأة وعلى اللغة. وعند قبائل التوارق اَلمنتشرة في قلب الصحراء الكبرى، يُسكّن حرف الزاي في "أمازيغ" ويقلب إما هاء، وإما شينا أو جيما، بحيث تنطق اللفظة "أماهغ" عند التوارق الجزائريين، و"أماشغ" عند التوارق الماليين، و "أماجغ" عند التوارق النيجيريين. وتُؤكد الأبحاث اللغوية أن

تسمية الأمازيغ تجد جذورها في عدد من تسميات القبائل والشخصيات التي طبعت الفترة القديمة. إذ أنه على الرغم من اختلافها، فإنها تشترك في جذع واحد والذي يتكون من الحروف م. ز. ج / M. Z. G أو م. ز. ك / M. Z. K. وهكذا نجد مجوعة من الأسماء المحلية التي تشترك في هذا الاشتقاق الاسمي ويمكن أن نذكر منها : Mazices, Maxyes, Mazyes, Madices, Mazicei, Mazazenes, Mazic et Mazica. كما أن المصادر العربية الوسطوية التي تناولت تاريخ الأمازيغ تؤكد على أنهم أبناء *مازغ*.

وأوردت المصادر المصرية ذكر بعض القبائل الليبية، ومن أهمها : "التحنو" وكانوا مستقرين غرب وادي النيل وكذا المجموعة البشرية المعروفة ب"التمحو"، وكان موقعهم خلف موقع بلاد التمحو في المجال الممتد من الحدود الغربية لمصر حتى طرابلس غربا، تميزوا عن المصريين وعن التحنو معا، ببشرة بيضاء وشعر أشقر وعيون زرقاء. بالإضافة إلى القبيلة المشهورة " ليبو" Libu التي كانت تعيش في شمال إفريقيا غرب وادي النيل ويمتد مجال نفوذها حتى المحيط الأطلسي، وتحدها جنوبا إثيوبيا. وأخيرا قبائل "المشواش" التي جاء ذكرها في نصوص رعمسيس الثالث كإحدى القبائل الليبية المستقرة جنوب قبائل "الليبو".وقد ذكر المؤرخ اليوناني هيكاتايوس Hekataios "إمازيغن" في القرن السادس قبل الميلاد باسم "مازييس" Mazyes ، وذكرهم هيرودوت Herodotos في القرن الخامس ق. م، باسم "ماكسييس" Maxyes. أما المؤرخون اللاتينيون فقد أوردوا الاسم نفسه محرفا إلى "مازاكس" Mazax أو Mazaces أو إلى "مازيكس" Mazikes، وهي أسماء أطلقتها مجموعة من القبائل النوميديين الذي كانوا يتنقلون بشمال إفريقيا.

ويطلق على الأمازيغ، أيضا، نعت "البربر"، بمعنى العجم والأجانب. فقد كان لكل حضارة عجم يحيطون بها ويشكلون خطرا عليها. فقد أطلق اليونان اسم "Βαρβαρος" على غيرهم من الشعوب بدءا باللاتينيين. وأخذه عنهم الرومان فصاروا يطلقون "Barbare" على كل شعب خارج عن المجال الحضاري اليوناني اللاتيني. وتبعا لهذا فقد سمي أهالي إفريقيا الشمالية ب"البابار" لكونهم بعيدين عن الحضارة الرومانية ويعيشون حياة متوحشة. واستعمل العرب مصطلح بربر "Bérbére"، الذي يتقارب كثيرا من الناحية اللفظية مع المصطلح اللاتيني "Barbare". غير أن الفرق بين "بابار" و"بربر" هو أن الأول يحمل دلالة تحقيرية ويدل على مستوى أدنى من العيش، بينما الثاني ظهر كاسم لمجموعة بشرية لا تتكلم اللغة العربية. وفي هذا السياق كتب العرب الكثير عن أصله واشتقاقه، ويروي ابن خلدون أن بعض العرب يرون في "بُر" الجد الأعلى للبربر. كما يعتقد أن أصل الاسم من اللغة العربية باعتبار أن "بربر" تعني نطق بكلام غير مفهوم. أما المسعودي والطبري فيرجعون الاسم إلى إفريقيش الذي أطلقه على أفراد جيشه الذين تكلموا لغة غير مألوفة.

لا تخلو المصادر التاريخية للحضارات القديمة التي تعاقبت على حوض البحر الأبيض المتوسط من الإشارة أو ذكر الأمازيغ كقوى سياسية بمنطقة شمال إفريقيا. فهي وإن كانت تقدم "البربر" من وجهة نظرها وحسب طبيعة العلاقات التي ترتبط بها، فهي توفر مصدرا تاريخيا مهما يسعفنا في تكوين صورة عن ظهور الأمازيغ على ساحة الأحداث التاريخية كقوة سياسية استطاعت أن تفرض نفسها بالمنطقة. وقد ظهر الأمازيغ في المصادر التاريخية بدءا من المخلفات المصرية قبل استقرار الفينيقيين والقرطاجيين بسواحل البحر الأبيض

المتوسط واحتكاكهم المباشر مع الساكنة المحلية. وقدمت المصادر التاريخية الإغريقية صورة واضحة عن هؤلاء السكان ثم أعقبتها المصادر اللاتينية، حيث أفاضت في الحديث عن القبائل والممالك الأمازيغية التي تعاقبت على الحكم بشمال إفريقيا خلال الفترة القديمة.

لم يهتم المؤرخون القدماء بشؤون الممالك الأمازيغية إلا في إطار علاقتها بالصراع الروماني القرطاجي، لذلك فجل المصادر التي تناولت موضوع الممالك الأمازيغية بشمال إفريقيا خلال الفترة القديمة تبقى أجنبية (إغريقية/ لاتينية). إذ تتعرض للممالك الأمازيغية كقوة سياسية في إطار التحولات السياسية التوسعية لمُختلف القوى التي احتكت بها. وكان ظهور الممالك الأمازيغية أثناء الصراع الروماني القرطاجي، ابتداء من القرن الثالث قبل الميلاد، وقد استمر في الوجود إلى أن استطاعت روما القضاء عليها كقوة سياسية بالمنطقة وفرض نظامها على القبائل الأمازيغية.

تكشف المصادر التاريخية عن ثلاث قوى سياسية أمازيغية استطاعت أن تطبع تاريخ شمال إفريقيا خلال الفترة القديمة وهي : المملكة المسولية النوميدية في شرق إفريقيا والمملكة الماسيسوليين في الوسط وأخيرا المملكة المورية في الغرب الأطلسي.

ظهر الماسيسوليون على مسرح الأحداث التاريخية كأكبر قوة محلية في إفريقيا الشمالية في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. أفرزت دراسة النصوص القديمة آراء متباينة عن أصل الماسيسوليين. ويمكن الإشارة إلى وجهتي نظر تعتبران قطب الإشكالية، إذ يرى البعض أن قبيلة ماسيسولية كانت مستقرة بشمال المغرب الحالي ما بين مدينتي سبتة وتطوان، قبل أن تنطلق للسيطرة على أكبر قسم من القطر الجزائري الحالي. يرتكز هذا الرأي على نقيشة تم العثور عليها بالقرب من مدينة تطوان ورد فيها ذكر اسم ماسيسول. ويرى البعض الآخر أن الماسيسوليين هم أبناء عم الماسوليين، انطلقوا من الجهة اليمنى لنهر ملاك (Mellec)، ليستقروا فيما وراء الضفة اليسرى للواد الكبير (Ampsaga) حيث توجد مدينة سرتا (Cirta) بالجزائر الحالية.

عُرفت المملكة المورية في المصادر التاريخية الإغريقية بموروسيا Maurousia، ودعتها المصادر اللاتينية بموريطانيا Mauritania وساكنتها بالمور Maures. تمتد هذه المملكة على طول الواجهة الشمالية الغربية لإفريقيا الشمالية، وهي نقطة الوصل بين العالم المجهول والعالم المعروف. ظلت المملكة المورية مستقلة عن كل القوى السياسية المتوسطية إلى أن تمكنت روما من إخضاعها إلى باقي الولايات الرومانية سنة 40 م.

يعود ذكر المملكة المورية، في المصادر التاريخية، إلى أواسط القرن الرابع ق. م.، وربما وجدت قبل ذلك، حيث كان للقرطاجيين مستوطنات على الساحل الغربي للقارة الليبية. وتربطهم مع ملوك هذه المملكة علاقات، عملوا على الحفاظ عليها. كما أن المصادر الأركيولوجية هي الأخرى تُؤكد على وجود المملكة المورية من خلال مخلفات ضريح سيدي سليمان الذي يرجع تاريخه إلى نهاية القرن الرابع وبداية القرن الثالث ق .م.

وفي نهاية القرن الثالث، ذكرت المصادر التاريخية اسم أحد الملوك الموريين، وهو باگا Baga الذي يعتبره الكثير من الدارسين مؤسس إحدى الأسر الملكية الموريطانية. وحول نفوذ هذا الملك، يذكر المؤرخ "تيت ليف"

(Tite Live) أنه كان ملكا قويا، ويتوفر على جيوش عديدة ساعد ببعض كتائبها محاصره مسنيسا ملك الماسوليين. وبوفاة باكا ملك الموريين، ينسدل الستار على هذه المملكة لمدة قرن من الزمن، إلى حين ظهورها مرة أخرى عند المؤرخ سالوست الذي تحدث عن الملك بوكوس الشيخ Bocchus (118 – 81 ق.م) كصهر لملك نوميديا يوغرطة، وملكا على جميع الموريطانيين.

دخلت موريطانيا، بعد موت بوكوس الثاني سنة 33 ق. م، منعطفا جديدا من تاريخها السياسي اتسم بفراغ العرش، فاعتمدت روما نظام "الحماية" لتسيير شؤون الحكم إلى حدود سنة 25 ق. م. واكب هذا الفراغ ارتباط الموريين بالمؤسسات السياسية والعسكرية الرومانية عبر مجموعة من المعاهدات منها : أولا قانون الصداقة والتعاون الذي يربط الموريين بالشعب الروماني، وثانيا معاهدات الانتماء إلى نفوذ أكتافيوس حيث كان بوكوس من بين أنصاره الذين وقفوا ضد أنطونيوس، وثالثا حقوق المواطنة التي منحها مجلس الشيوخ لبعض الرعايا الموريين مثل أهالي طنجي عقب انتفاضتهم ضد بكود. ولذلك، كانت كل من سلطتي العرش والشعب مرتبطتين بالمؤسستين التشريعية والعسكرية الرومانية.

اختلف الباحثون حول إشكالية تولي تسيير شؤون موريطانيا الداخلية في فترة فراغ العرش. إذ يفترض "كسيل" تعيين حاكمين رومانيين تم "اختيارهما من فئة الفرسان، الأول يستقر في مملكة بوكوس والثاني ربما في مملكة بكود". وذهب البعض الآخر إلى الاعتقاد أن تسيير شؤون موريطانيا الداخلية ما بين 33 و25 ق. م، كان يتولاه حاكمان الأول موري والثاني روماني. ولهذا بقيت وضعية موريطانيا في هذه الفترة أمرا مبهما ما عدا علاقتها الوثيقة بالرومان وخضوعها لوصاية أكتافيوس الذي أدخلها في مرحلة جمود سياسي.

أعقبت فترة فراغ العرش تعيين ملوك تابعين لروما تم تكليفهم بتطبيق السياسة الرومانية في موريطانيا. فبعدما تمكن أغوسطس من فرض نفسه كقوة سياسية وعسكرية داخل الإمبراطورية الرومانية شرع في إدخال التغييرات الإدارية للإمبراطورية. واندلعت في إسبانيا مجموعة من الثورات سنة 26 ق. م، دفعت بالإمبراطور الروماني إلى إقرار إدخال موريطانيا تحت نظام "الملكية الخاضعة".

منح الإمبراطور الروماني أغوسطس، بصفته "الوصي الشرعي" مملكة بوكوس الثاني إلى يوبا الثاني الذي تربى في أحضان الرومان. وكلفه بمهمة إخضاع موريطانيا لنظام حكم خاص يتوخى منه بسط السيطرة الرومانية على موريطانيا من الناحية الاقتصادية وزرع عناصر مشروع الرومنة عن طريق إدخال آليات التحولات الاجتماعية والحضارية الرومانية في المجتمع الموري.

حظي تاريخ يوبا الثاني، الأمير النوميدي الأصل والهيليني من حيث الثقافة والمُتَرَوْمِن من حيث التكوين الإداري والعسكري، باهتمام المؤرخين القدامى والمعاصرين على السواء. وساهم في ذلك ما خلفه من مؤلفات أدبية وعلمية، بالإضافة إلى الاهتمام الذي أحاط به الرومان هذا الملك حيث أسندوا إليه مهمة تثبيت السلم الأغوسطي في موريطانيا. كما أن الفترة الطويلة التي حكم فيها والتي تمتد على مدى نصف قرن (25 ق. م.- 23 م.) مكنته من ترسيخ صورته كأحد الملوك الموريين الذين تركوا بصماتهم في تاريخ شمال إفريقيا القديم.

عقب وفاة الملك يوبا الثاني، بقيت الظروف غير مساعدة لضم موريطانيا إلى باقي الولايات الرومانية، إذ كانت الأنظار لا تزال مركزة على الحرب مع تكفاريناس. وبذلك لم يجد الرومان بُدّا من مباركة تعيين ابنه بطليموس كخلف للملك يوبا الثاني لا كوارث للعرش الموري، وإنما كملك على الموريين مثله في ذلك مثل سلفه يوبا الثاني. ويمكن القول بصفة عامة أن تولي بطليموس لعرش موريطانيا أمر استحسنه الموريون أكثر مما قبلوا به حكم والده. يعود سبب هذا الرضا العام إلى احترام نظام انتقال الحكم في موريطانيا حسب النظام القبلي. فبطليموس على الأقل إفريقي الأصل، ينحدر من أسرة ملكية عريقة في شمال إفريقيا، وتولى مهام ولاية العهد قبل تنصيبه ملكا.

ويمكن أن نستنتج هذا الرضا العام من خلال الهدوء الذي ساد بموريطانيا. فالجيوش الرومانية لم تتدخل طوال فترة حكم الملك بطليموس في موريطانيا من أجل تهدئة الوضع أو غير ذلك. ومن غير المستبعد أن بعض الموريين قد وجدوا فيه من ينافس الإمبراطور الروماني على الأقل في النسب والشرف نتيجة العلاقة الدموية التي كانت تربطه بالعائلة الإمبراطورية في روما من جهة، ومن جهة أخرى بأعرق الأسر الملكية في حوض البحر المتوسط.